الغد المستحيل

قصة بقلم فائز محمود

- ١ -

ها هي انعام قد ظهرت . وخفق قلب خالد بعنف ، وأحس أن عينيه قد زاغ منهما البصر ، وفترت قبضته التي كان يشدها على الشيء المخبأ في جيب بنطاله .. ترجلت انعام من العربة ، وكادت تتعثر ببعض الحجارة وقد همت بالمسير حيث كانت قد أوصلتها العربة لغاية حافة نهاية الشارع المتصل بأرض مكشوفة غير معبدة مملوءة بالحجارة والاكمات والوهاد ، تقع المدرسة التي تعلم بها على بعد يسير من هناك . وخشي خالد على انعام ان تسقط ، ثم رأها تتهادى واثقة الخطوة .. لم تكن تراه في موضع رصده .. وأخرج يده فارغة من جيبه . طفحت عيناه بالدموع ، وانهمرت في نفسه شلالات أحزان عميقة . بينما كانت انعام تواصل المسير وقد جاوزت الوضع المطلوب . ثم رنا ببصره الى السماء ، حيث تعبر غيوم ثائرة تغلي على بعد قريب رقعة الفضاء . وغمغم لنفسه : لا بد غدا من الانتهاء .

- ٢ -

مرت أيام طويلة ، وكل يوم يعود خالد ليقرر أن لا بد غدا من الانتهاء .. وهو في نفسه يعتقد تماما أن هذا الغد سيحل موعده .. لا داعي لليأس ، أفلا يشعر في قرارة نفسه أنه قد غدا أكثر حماسا وايمانا للاقدام ؟. بلى .. لكن كل شيء لا بد له من ثمرة اولا ، ثم مع الرعاية والاهتمام سينمو وينمو حتى ينضج .. وعلامات النضج بدت له الان بشكل يدعو الى الاطمئنان ، بل انه ليسخر من نفسه لو كان أقدم على فعلته هذه في بدء اتخاذه هذا القرار .. كان ذلك قبل عدة أسابيع ، اذ بينما كان مستغرقا في شئون وظيفته ومضت في نفسه هذه الارادة .. ولقد رغب لو قام لينفذها توا ، وبدا له العمل مزعجا والناس لا تطاق والزملاء ثقلاء للنهاية .. وهفت روحه الى ذكرى انعام ، وعجب من كل الاحداث التي جرت من غير أن يفهمها .. وتناهى لسمعه صوت أحد زملائه يسخر :

ـ ألو يا ارسطو ، كيف حالك ؟

ـ دعه يا حسني في تجلياته ، انه الان يشاهد المطلق والكينونة والوجود والعدم والاشياء الاخرى التي يعج بها ملكوت الفلسفة !

ـ أراهن يا شباب ان خالد عاشق ، لقد صدفته عدة مرات برفقة فتاة معينة .. اليس كذلك يا ..

ـ مسكين ..

وهدرت القهقهات ، وغمر الديوان ضجيج متزايد :

ـ لنطلب قهوة ، من زمان تكلم يا خالد ، انطق يا اخي ، ستة قهوة على حسابي بشرط أن لا تعود الى تجهمك ..

ووجد خالد نفسه يضحك معهم . قال :

ـ بعد شهر سأغادر هذه الدنيا الى الابد ..

ـ رائع ، رائع يا خالد . أنت فكه ، ونحن نظلمك بعدم فهمنا لمواهبك المتعددة .. ها ها ها ها ..

وبينما كانت الضحكات تترى ، دوت في نفس خالد جملته .. بعد شهر سأغادر هذه الدنيا الى الابد .. فامتلأ كآبة ، وتصور نفسه حقا قد انتهى . سيكون خلال هذه المدة قد نفذ قراره ، وربما قبل ذلك.. وعبس في وجه زملائه . لم يحفل بكل ما عاد يجري .

- ٣ -

هذه مخطوطة الكتاب كاملة ، وهذه الاعترافات صريحة ، وماذا بعد .. كل شيء معد .. بقي أن يكتب رسالة لاحد الادباء الكبار ، وسيهديه الاعترافات والمخطوطة .. نهض بخفة واحضر دفتر الرسائل ، وبدأ يكتب .. وبين الفينة والاخرى كان يفرك يديه حبورا ويتوقف قليلا ويناجي نفسه : شيء مدهش أن يخطط الانسان لنفسه النهايات المصيرية . لو عشت مليون عام لما جرى شيء جديد خلاف الطعام والشراب والعمل والنوم .. والحب قد أفتقدته يا خالد الى الابد .. لا لن يتركني لانعفن ، انني سأظل سويا ، انني مسرور مبتهج ، صدقوني أيها الناس . ونهض فتمشى في انحاء غرفته ، ثم هرول قليلا ، ثم عاد ليتم الرسالة ، وهكذا حتى أنهاها .

- ٤ -

انزوى في أحد أركان الحانة ، وأخذ يحتسي شرابه ، وكلمات الاغنية التي تذاع تفجر أشواقه : « وانتبهنا بعد ما زال الرحيق ، وأفقنا ليت أنا لا نفيق . يقظة طاحت باحلام الكرى ، وتولى الليل والليل صديق . واذا النور نذير طالع ، واذا الفجر مطل كالحريق . واذا الدنيا كما نعرفها ، واذا الاحباب كل في طريق » .. بسيطة يا انعام ، والله لادمرك.. وتجشأ.. ملعون أبو الدنيا ، غير مأسوف على فراقها . غدا لا بد من الانتهاء .. وصرخ من بعيد أحد الموجودين « البشر مجانين يحاربون ويقتلون بعضهم البعض ، البارحة قتل ولدي على الحدود » واخذ يبكي بصوت عال .. وكرع خالد كأسه حتى الثمالة : كل هذا الذي يقوله الرجل صحيح للنهاية .. وحسده على دموعه الغزيرة : لم يبق لدي دموع . حزني غيوم لا تمطر ، وآمالي مجدبة لا تثمر .. في جيبي كتاب ودفتر ملاحظاتي و .. وذاك الشيء المرصود للغد ، نعم لا بد غدا من الانتهاء .

- ٥ -

ها هي انعام قد ظهرت . هذه المرة لن يدع ضعفه يسيطر عليه .. وبسرعة شد قبضته على الذي يخبئه في جيبه ، وأمسك به بشكل صحيح . سيخرجه بعد قليل حينما تغدو في الموضع المناسب . بعد ذلك .. انه سيعرف كيف يتصرف ، لكن كل شيء مرهون بأوانه .. أما الان فيجب أن يظل قويا .. ها هي قد بدأت تسير في اتجاهها المعتاد . كانت تحمل بالاضافة الى حقيبة يدها كتابا للمطالعة .. وتمعن في قسمات وجهها الطافح بالبراءة والحنان . همدت ثورته ، وترقرقت عيناه بالدموع ، ولهج في سريرته باسمها : انعام يا غاليتي ، أأنا بصوابي ، أأنا في حقيقة اذ أشاهدك الان أم انني مهووس ، فلقد عهدت كلما رأيتك ان أهرع الى احضان ودك ، وان أعانق اشواقك . أنت أبهج رؤية تشاهدها عيني ، وتتجلاها بصيرتي .. فلت وقع كل هذا .. لم .. وخنقته العبرات ، وغامت في عينيه الرؤيا .

- ٦ -

كان الليل يتبدد، والفجر يسفر عن يومه الجديد ببطء ريثما تنفجر الشمس في المشرق فتشع الافاق بالنور .. وهو لم ينم هذه الليلة ولا لحظة توكيدا لرفضه أي تأجيل يهدهد نفسه به باستمرار .. غادر مسكنه والظلمه الشفافة تسربل الحي ، وبعض الندى والرطوبة تكتنف المساكن والتراب والحجارة .. وتطلع من بعيد نحو مسكنها الغارق في النوم ، كنجم بعيد في أقصى المجرة مطفأ في عيوننا الارضية التي لا تبلغ مداه النائي . وتمنى لو كان روحا مجردة ليلوح لها في الاحلام ، طيفا يمنحها الامل والسعادة . واذ الفى نفسه يسير في درب لا يمت الى دنياها بقربى ، شعر بوحدة قاسية ، وبالضياع ، وافتقد حضورها المملوء بالافراح . واجتاحته غصة مريرة من آلامه وعذاباته .. كانت كل الطرقات ، والازقة ، والاماكن ، مسرحا حيا تنبض في جنباته الذكريات والآمال بل حتى ومصيره الذي يحوك نسيجه الان .. انه لن يذهب الى الدوام . ولم يذهب . انتهى كل شيء ، اليوم لا بد من الانتهاء . لن آكل ، لن أنام ، لن أفعل أي شيء قبل أن انتهي . تقول لي ان الدنيا تغير ، وأقول لهاان هذا خيانة . وحكم الخائن ، وابتسم معجبا بفكرته هذه ، وحكم الخائن ، بالطبع معروف . خائنة . خائنة ... ودغدغته اصداء ضحكة لذيذة انتشى لها ، وحينما تطلع الى تلك المرأة التي كانت تحدق به من خلف شباكها . ضحكت له ثانية وهي تتمايل بدلال.. انه يعرفها من أقوال الناس ، يشيعون عنها بعض الاقاويل ، ويبدو انها ليست عارية من الصحة .. فتح الباب وظهرت به مرتدية فستان النوم وغمزت تدعوه للدخول ، وانثنت متفانجة وتركت الباب بنصف فتحة .. تردد قليلا ، ثم تحرك نحو الباب وقبل أن يدخل انفتل بسرعة عائدا ، لكنه بعد عدة خطوات عاد ودخل .

- ٧ -

كان يشعر بوجهه متورما ، وجسده كذلك .. وماذا يفعل ، لم يستطع مغالبة النوم بعدما نعم بدفء الفراش .. وحنقت المرأة .. خنقته بالماء ترشه على وجهه ، وباللكمات ، والصفعات حتى يستيقظ .. كان النعاس يشده الى غيبوبته ، بحيث استكان الى تقبل الضرب على أن يصحو . واحيانا كان يظن انه يحلم ، كان يراها تنهال عليه ضربا وشتما ، ثم تتأمله لحظة حائرة ((ما هذه المصيبة ، الم يخطر على بال عزرائيل أن يقبض روحه الا عندي ؟)) .

واستيقظ خالد أخيرا ، وبسرعة اخذ يتذكر أين هو . وجنت المرأة من الفرح : اخرج يا رجل بسرعة قبل أن تعاودك النوبة ، لقد أمتني رعبا .

لم يكن يستطيع الحركة بسهولة ، وتحسس وجهه وجسده ، ثم تطلع نحو الشمس التي ارتفعت كثيرا .. وبعد هنيهات قصار من التفكير ،أتجه نحو مسكنه : في الغد سينتهي كل شيء ، اما اليوم فانا تعب ، تعب حتى الموت .. حتى ، حتى انه لا يمكنني أن أموت .

- ٨ -

كان يتبع انعام من بعيد دون ان يرغب باللحاق بها ، وكان زحام الناس بالغا ، ولقد لمحته انعام بطرف عينيها فانزعجت .. لكنه لم يأبه ، كانت فيما مضى تسر لرؤياه ، انما بعدما تغيرت انعكست مشاعرها .. وكم يتمنى خالد لو كان عالما نفسيا حاذقا ليعدل مشاعرها من جديد ، وليضبط ميزان عواطفها ، ثم فكر بان العيب ربما كان كامنا في نفسه . وهو يعترف بانه قد تغير ، يقصد انه قد سقط . لقد كان في السابق أفضل . أهو بحاجة الى اثبات ذلك ؟ والبرهان واضح في مسألة حبه لانعام نفسها . لم يكن فيما سبق يمكن أن يهدر وقته بخلاف شؤون الفكر ، ولا كان يمكنه أن يتصور أن يطأطىء هامته أمام أي انسان لاجل عاطفة خاصة أو مطلب شخصي .. وصرخ خالد.. اندفع هلعا وصراخه يتعالى اذ شاهد انعام ملقاة امام العربة .. وتطلع حوله ، كانت دموعه تنهمر من عينيه ، وهو راقد في السرير ، وصدى هتافه لا زال يملأ أذنيه .

- ٩ -

كان الطارق صديقه قاسم ، أعلن مذ شق الباب عن اضطرابه لغياب خالد عن الدوام منذ أيام : -

- الحمد لله على السلامة ، أأنت الان بخير ؟ ..

ولم يجب .. استلقى خالد على سريره ، كان الضعف والخوار باديين عليه بشدة ، ومسحة من الحزن العميق تحفر ملامح وجهه وجسده الضامر ..

- لقد انتهى كل شيء يا صديقي ، لن أعود ثانية الى الدوام . أنت تعلم كم أقاسي من سخافة العمل ، لقد دمر روحي ..

- انني لا افهم شيئا ، ماذا تود ان تقول ؟ .

ودنا قاسم حتى حاذاه ، وجلس على حافة السرير ..

- قلت لكم من زمان .. قلت لكم بانني .. بعد شهر .. وها هو قد حل الموعد ..

- أي موعد ، انني لا أذكر أي قول يتعلق بموعد يا خالد ، أي موعد ؟ .

- بعد شهر سأغادر هذه الدنيا ، أي في الغد ..

نظر قاسم نحو صديقه فوجده يتكلم بحماس وايمان . فلم يستطع أن يظهر له عكس ذلك .. واستطرد خالد :

- انظر الى هذا ، انه الذي سيقرر غدا كل شيء ..

كانت يده ترتجف بشدة ، وصوته متهدجا ، وفكر قاسم في نفسه بان خالد على حافة الخطر تماما ، وهو يعرفه حالما لا يتردد في تفسير العالم من خلال رؤياه الذاتية .. واستطاع أن يكسب ثقته وهو ينصت له باهتمام دون أن يقاطعه أو يشاكسه .. ومضى خالد يتكلم بصوت خافت ، وذهل عن وجود صديقه لمدة طويلة :

- كانت طيبة .. انها الان أيضا طيبة ، ولكنها مرحلة نفسية عابرة تعانيها .. لكن هب انها زوجت وهي لا تزال تحت تأثير نفسيتها العارضة فما الذي سيكون .. لا يمكنني أن اتصور ذلك .. لكنك يا خالد عشت كثيرا ، عشت معظم عمرك بدونها فلم تجعل لها كل هذه الاهمية الان .. سيكون لها رجل .. لا لا لا ، لا يمكن .. هل سيجلس معها ، ويكلمها ، ويتناول طعامه معها . بل . بل أنه ، وانها ، بل وانهما سينامان معا .. هذا غير ممكن .. هذا غير ممكن . لا بد غدا من الانتهاء .. وحدق في صديقه فوجده مبهوتا به ، تبدو عليه امارات الرثاء . فحنق .. اخرج ، اخرج من هنا والا قتلتك .. وصفق الباب خلفه ، وما أن أختلى بنفسه في الغرفة حتى أجهش ببكاء حار متدفق .

- ١٠ -

كانت الانفجارات تدوي ، وصوت الطائرات المغيرة يملأ الجو .. وفتح المذياع ، عملية انزال للعدو .. عليه الان اذن أن يلحق بفرقته في المقاومة الشعبية .. وفجأة ، ملأته شهوة بطولية تحرضه على العنف . وأخذ هذا التحريض يزداد مع تتالي الدقائق ، وهو مستلق على فراشه. وبعد حين ، نهض وارتدى ملابسه وانضم لفرقته التي تحتفظ بعنوان منزله في حالة تأخره ..

وبعد انجلاء الغارة ، واشراق شمس السلام المؤقت على ربوع المدينة من جديد ، لم يعد خالد الى مسكنه .. لفه ظلام أبدي لا تشرق فيه الشمس وتغيب ، ولا ينتظر فيه الغد .

عمان - الاردن

فايز محمود